ISSN : **2602-618X**
EISSN: **2710-8031**

الزوايا والطرق الصوفية بالصحراء الجزائرية عند لويس رين

The Zaouiya and Sufism in the Algerian Sahara: Louis Rinn View

الدكتور مجدوب موساوي، جامعة الدكتور الطاهر مولاي سعيدة

medjdoub70@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2019/08/28 تاريخ القبول: 2019/09/17 تاريخ النشر: 2020/01/31

الملخص:

اهتم كثير من الفرنسيين بكتابة تاريخ الجزائر في جوانب شتى؛ منها الجوانب الدينية وبصفة خاصة التصوف والطرق الصوفية، إلا أنّ كتاباتهم احتوت في ثناياها الكثير من السلبيات والنقائص والتصورات المغلوطة والأفكار والأحكام المسبقة؛ بل أكثر من هذا تزييفات وتحريفات للحقائق، وهي ميزة نجدها قد تميّزت بها جل الأقلام الفرنسية التي كتبت وفق نظرة استعمارية استعلائية خدمة لمصالح فرنسا وأهدافها الاستعمارية، منها ما كتبه العسكري لويس رين LOUIS RINN في كتابه مرابطون وإخوان Marabouts et khouans : études sur l'islam en Algérie عن الزوايا والطرق الصوفية بالصحراء الجزائرية والتي اتخذناها أنموذجا في مقالنا هذا.

الكلمات المفتاحية: التصوف؛ الطرق الصوفية؛ الجزائر؛ الكتابات الفرنسية؛ لويس رين.

ABSTRACT:

Many French scholars were interested by the history of Algeria in various aspects, including the religious one, especially Sufism. However, their writings contained a lot of negatives, imperfections, misconceptions and prejudices, a feature we find has been characterized by the majority of French pens, which were written according to an imperialist superiority to serve the interests and objectives of France, such as the military Louis Rinn in his book **Marabouts et khouans: etudes sur**

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

l'islam en Algérie. On the Zaouiya and Sufism ways in the Algerian desert, which we have taken as a model in this article.

Keywords: Sufism; Sufi ways; Algeria; French writings; Louis Rinn.

1. مقدمة:

يُعد الضابط العسكري لويس رين من أولئك الفرنسيين الذين كُلفوا بالبحث والكتابة في تاريخ الجزائر، ومما كتبه في مجالها الديني نجد دراسته المنشورة الموسومة: "مرابطون وإخوان – دراسة عن الإسلام في الجزائر –"، والتي اعتمد في إنجازها على المصادر المحلية والأرشيف والترجمة واستنطاق الشهادات الحية.

دراسته هذه والتي اتخذناها أنموذجا في مقالنا هذا لم تخرج في مقاصدها العامة عن أهداف غيره من الكتاب الفرنسيين[1]، الذين كتبوا لأجل خدمة مصالح بلدهم في الجزائر والمحافظة عليها؛ وذالك بتشويه وتحريف كثير من الحقائق التاريخية في مرات، وإخفائها وعدم ذكرها في مرات أخرى حسب ما تمليه عليهم مصلحتهم الوطنية.

وبالرغم من المعلومات المفيدة التي تقدمها هذه الدراسة عن الزوايا الدينية والطرق الصوفية بالجزائر خلال الفترة العثمانية وفترة الاستعمار الفرنسي، إذ تُعد من بين المراجع والوثائق التاريخية المهمة جدا والتي لا يمكن لأي باحث أو دارس في هذا المجال أن يتجاهلها أو يتنكر لها، ولكن في المقابل وجدنا فيها كثير من النقائص والغلط المقصود لعدم التزام الكاتب بالموضوعية العلمية في مثل هذه الدراسات.

سنحاول من خلال مقالنا أن نشير إلى هذا؛ بالكشف عن جزء ولو بسيط في حقيقة ما كتبه لويس رين عن الزوايا والطرق الصوفية بالصحراء الجزائرية ونظرته إليها؛ وهل صحيح أن دراسته هذه تعكس ما كان يزعمه فيها؟ وهل حققت أهدافها المنشودة؟ وهل يمكن لنا كباحثين ودارسين أن نثق في هذه الكتابات وأن نعتمد عليها في دراساتنا الأكاديمية؟

1 من هذه الكتابات؛ على سبيل المثال لا الحصر نجد:

-Daumas, **Sahara algérien**, paris, fortin – Masson, 1887.

-Trumelet, **les français dans le désert**, 4° édition, challanet, paris, 1887.

- Dennice, **précis historique et administratif de la compagne d'Afrique**, lepannay, paris, 1830.

- Octave DEPONT et Xavier COPPOLANI, **les confréries religieuses musulmanes,** Typographie et lithographie Adolphe Jourdan, Alger,1897.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

2. التعريف بصاحب الكتاب:

اسمه الكامل هو لويس ماري رين، ولد بفرنسا سنة 1838، تقلد عدة مناصب هامة منها:

- قائد لفرقة المدفعية في الجيش.
- رئيس المصلحة المركزية لشؤون الأهالي في الحكومة العامة[2].
- مستشار سابق للحكومة الفرنسية.
- نائب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية.
- ضابط جوقة الشرف.

اعْتُبر لويس رين من بين العسكريين الفرنسيين الأكثر دراية بالجانب الإسلامي في الجزائر وبمسائل القبائل، اشتهر بمعرفته الواسعة للغة العربية، وبخبرته في شؤون الأهالي، والعائلات الكبيرة والمرابطين والأشراف والطرق الصوفية والزوايا المنتشرة في الجزائر[3].

1.2 كتاب "مرابطون وإخوان":

يعد كتاب "**مرابطون وإخوان – دراسة عن الإسلام في الجزائر** -" للويس رين الصادر سنة 1884 م والمؤلف من 524 صفحة جزءا هاما من التراث المكتوب الذي خلفته الإدارة الاستعمارية بالجزائر، وهو من بين الدراسات المتخصصة والدقيقة التي شملت التصوف والإسلام بالجزائر والذي مثلته الزوايا الدينية والطرق الصوفية المختلفة ورجالاتها، إذ قدم لنا إحصائيات حول أعدادها ومريديها وبعضا من أوقافها، وكثيرا ما تشبه دراسته هذه التقارير الإدارية المتعلقة بالاستعلامات والاستخبارات والتي لا تخرج عن الدراسات الكولونيالية حول الجزائر.

2 مثلت شؤون الأهالي المكاتب العربية التي يعود تأسيسها إلى قرار 01 / 02 / 1844 في عهد الجنرال بيجو، لتكون واسطة بين الإدارة الفرنسية والأهالي، يرأس المكتب العربي ضابط فرنسي إلى جانب موظفين مترجمين، حارس، كاتب، قاضي وجابي الضرائب، ويخضع المكتب إلى إدارة مركزية على مستوى العاصمة تابعة للحاكم العام، ودورها الحقيقي هو تفتيت القيادات والزعامات المحلية ذات النفوذ المعرقلة للاستعمار.أنظر بوعزيز يحي، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830 – 1954**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص ص 11 – 13.

-Hugounet Ferdinard, **souvenir d'un chef de berrau arabe**, Michal Lévy-Fréver, paris, 1858, pp. 8 – 9.

3 Narcisse, faucon, **le livre d'or de l'Algérie, (histoire politique, militaire, administrative événement et faits principaux, biographie des hommes ayant marque dans l'armée, les sciences, les lettres, ect.de 1830 a 1889)**, tome 1, challamel et Cie éditeurs, paris 1889, pp 468 – 469.

انظر غلاف الكتاب (مرابطون وإخوان) محل الدراسة.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

يزعم لويس رين في دراسته هذه التي كُلف بها من طرف الإدارة الاستعمارية الفرنسية أنّ بلاده ترغب في إدخال ما عرفته أوروبا من تحضر وتقدم إلى الجزائر التي كثيرا ما عانت من التخلف والاستعمار في ظل الوجود التركي العثماني بها؛ هذه الرغبة اصطدمت بمعارضة شديدة وعنيفة لأصحاب الزوايا والطرق الصوفية الذين وقفوا ضد سياستها في محاربة الإسلام ونشر المسيحية، تجسدت في اندلاع المقاومات الشعبية وفي توحيد القبائل المختلفة تحت سلطتهم.

رأت فرنسا في هذه المعارضة أنها تشكل خطرا حقيقيا عليها وحاجزا منيعا أمام تحقيق طموحاتها ومصالحها بالجزائر فبادرت إلى تكليف ضباط المكاتب العربية بانجاز دراسات معمقة عن هذه المؤسسات الدينية، قصد إحصاءها وفرض المراقبة عليها، من بينهم رين الذي تناولها في دراسته بالتحقيق والتدقيق معتمدا على إحصاءات تطورها وأدوارها الايجابية والسلبية، وفي هذا نجده يُقر ويعترف بأن لبلاده مصلحة سياسية وإستراتيجية في ضبط عدد الفرق الدينية ومذاهبها ومجالات عملها وطرقها في التجنيد وتنظيماتها[4].

دراسة لويس رين هذه تعاملت معها الإدارة الاستعمارية الفرنسية بجد وحزم واتخذتها خارطة للطريق في وضع إستراتيجيتها اتجاه هذه المؤسسات للتغلغل داخل منظوماتها وتدجينها وضمان خضوعها، تفاديا لوقوع أي تأثيرات محتملة منها على السكان، وإضعاف أدوارها المهمة والمختلفة، وذالك بمصادرة أوقافها ومنع زيارات المريدين والأتباع لها أو جمع الأموال من قبل المقدمين لصالحها[5].وفي هذا يقول رين: "...تعددت الطرق الصوفية وعظم شأنها في جميع الأنحاء وصار لها تأثير شديد في قلوب الناس...لهم رسل ومريدون يطوفون البلاد...كمبشرين أو حجاج ويصلون بهذه الكيفية بين الأقطار... "[6].

نجده في هذه الدراسة ومن خلال فصولها المتعددة (32 فصلا) يُوجه تحذيرات وإنذارات لسلطات بلاده فرنسا بأن تحتاط من هذه الزوايا الدينية والطرق الصوفية المنتشرة عبر كامل التراب الجزائري دون استثناء، وأن تأخذها بعين الاعتبار والحسبان خصوصا وأنها ترفض وتعارض إصلاحاتها وحضارتها، ويرى أنه من المصلحة الفرنسية الكبيرة الاهتمام بها وذالك بكسب شيوخها وتنظيمها بوضع قوانين لها ولأتباعها تَسِير وِفْقها بقصد احتوائها واستغلالها، بدل العمل على إزالتها والتخلص منها وأن تعمل جاهدة لكسب ودها والتقرب منها والعمل معها

4 Rinn, op.cit, p. 56.
5 Ibid, pp. 245, 250.
6 Ibid, p. 127.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

[7].ويعطي في هذا مثالا عن انسجام العثمانيين مع هذه التنظيمات رغم أنهم كانوا يشكلون قلة لكنهم تمكنوا من ذلك لأنهم عرفوا كيف يكسبون شيوخ هذه التنظيمات الذين لم يبخلوا عليهم بتقديم مختلف العطايا[8].

يتحدث لويس رين أيضا عن المجهودات الإصلاحية المبذولة من طرف الأوروبيين لضم بلاد الشرق القديم في مسيرتهم الحضارية الحديثة قصد الاستفادة منها. ويذكر أنّ هذه الإصلاحات فشلت بسبب معارضة ورفض هذه المؤسسات الدينية التي رأت فيها خطرا في حين نجحت في توحيد الشعوب الإسلامية تحت راية العقيدة من المشرق إلى المغرب. هذه الوحدة يرى فيها رين أيضا خطرا حقيقيا على أوروبا التي تربطها مصالح مع هذه الدول، لكنه في الوقت نفسه يذكر أن دراسة هذه التنظيمات الدينية المؤثرة دراسة عميقة وشاملة كفيل بإزالة مخاطرها، وهو الأمر الذي شجعه على تَحمّل مسؤولية الكتابة فيها؛ ويُقر بأن هذه المسؤولية ليست بالعمل السهل[9].

كما تطرق لويس رين في دراسته إلى بعض الوظائف الدينية بالجزائر والتي صنفها إلى ثلاث وهي:

وظائف رسمية معترف بها من طرف فرنسا كوظيفتي الإفتاء والإمامة وهم لا يشكلون أي خطر عليها.

وظائف حرة أو مستقلة غير معترف بها كوظيفة المرابطين المحليين وهم دائما في تنافر واختلاف فما بينهم، ويتهمهم بالجهل والاحتيال والدروشة، وهم الذين وجب أن تحتاط منهم فرنسا لأنهم يدعون للجهاد. ووظائف ثالثة وأخيرة ممثلة في الجمعيات الدينية كما يسميها[10].

كما يقترح على بلاده أن تستحدث منصب شيخ الإسلام ليكون تحت سلطته الأئمة والمفتون قصد تسهيل وضمان مراقبتهم، كما نجده يوجه تُهما لِتَدَيُّن الجزائريين الذي يراه أنه يقتصر على الصلاة فقط وبعض العبادات، كما يذكر أن معظمهم من البربر رفضوا تطبيق جزءا من الشريعة الإسلامية وعوضوه بقوانين عرفية شبيهة بالقوانين المعمول بها في بلاده[11].

7 Ibid, pp. 3, 107, 516 – 521.
8 Ibid, p. 107.
9 Ibid, p. 520.
10 Ibid, pp. 1 – 21.
11 Ibid, pp. 8 – 14.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تحدث لويس رين بإسهاب في دراسته عن الطرق الصوفية الموجودة بالجزائر إذ خصص لها أكثر من **400** صفحة[12] ويذكر أنها طرق كثيرة ومتشعبة ومتفرعة الأصول، البعض منها مشرقية الأصل تعود إلى الطريقة القادرية، والبعض الآخر مغربية المنشأ تعود إلى الطريقة الشاذلية.

جعل لكل طريقة فصل كتب فيه عن تأسيسها وعرَّف بمؤسسها وأصولها وفروعها وعلاقتها مع الطرق الأخرى وأماكن تواجدها ومدى اتساع نفوذها وعدد مريديها وأتباعها في كل منطقة وأدوارها ومواقفها من الاحتلال الفرنسي. ومن هذه الطرق التي شملتها الدراسة نجد: الصديقية، العيسوية، الجنيدية، القادرية، السهروردية.والطريقة الشاذلية وفروعها: (العوفية، العروسية، الجازولية، الزروقية، البكرية، اليوسفية، الراشدية الزروقية، الغازية، السهلية، البكائية، الأحمدية أو الكرزازية، الشيخية، الناصرية، الطيبية، الزيانية، الحفناية، الحنصالية، الحبيبية، المدنية)، الطريقة النقشبندية، الخلوتية، التيجانية، الرحمانية، السنوسية[13].

اهتمام لويس رين بدراسة وإحصاء هذه الطرق الصوفية[14] لا نجد له أي تفسير سوى أنها كانت تمثل هاجسا حقيقيا أمام طموحات فرنسا التوسعية داخل الجزائر.

يُشبه لويس رين الفترة التاريخية التي عاشتها الجزائر في ظل الوجود التركي العثماني أو التي تعيشها بفترة عصور الظلام التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى والتي حكمت فيها الكنيسة بشكل مطلق على الأوروبيين وتسببت في تخلفهم وتأخرهم، فيشبه شيوخ الصوفية بالبابوات والزاوية بالدير وصراع المرابطين المحليين مع شيوخ الطرق الدينية بالصراع الذي كان في أوروبا بين رجال الدين النظاميين والعلمانيين[15].

وحديثه في هذا لم يقتصر على الجزائر فقط بل تجاوزها إلى العالم الإسلامي الذي يرى أنّ سبب تخلفه هو التصوف. كما أن الانقسامات التي يعيشها كانت بسبب تصرفات الحكام المسيحيين وتجاوزات الخلفاء الثلاثة الأوائل، والفوضى الرهيبة التي جعلت منذ وفاة علي بن أبي

12 Rinn, op.Cit, pp. 62 – 481.

13 خصص حديثه عنها من الفصل الثاني عشر الصفحة 157 إلى الفصل الواحد والثلاثون الصفحة 481.

14 Rinn, op.Cit, pp. 62 – 481. خصص لها أكثر من ثلثي عدد صفحات الكتاب:

15 Ibid, pp. 18 -19, 103.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

طالب –رضي الله عنه -العالم الإسلامي يغرق في الدماء لعدة قرون وهي التجاوزات التي وَلّدت اثنين وسبعين طائفة منشقة في الإسلام[16].

لا نجد أي تفسير للويس رين في هذا الحديث سوى تفسيرا واحدا، هو أنه اجتهد ليبرر أن قدوم فرنسا للجزائر خاصة والمسلمين عامة هو لأجل مهمة حضارية لا غير لكن تبريره جاء على حساب تشويهه للتاريخ وتزييفه للحقائق يجعلنا نُشكك في نواياه الحقيقية من دراسته هذه!

كما تحدث في فصل آخر منها عن مسألة الإدعاء بالنسّب الشريف لبعض شيوخ الزوايا والطرق الصوفية الذين ارتبطت المقاومات الشعبية بهم أو -حركات العصيان والتمرد –كما يُسميها، وغرضه في هذا أن تتفادى فرنسا أخطار تنظيماتهم الدينية على أساس أنّ شيوخها كانوا شرفاء.خصوصا وأنه كان يدرك جيدا أنّ النسب الشريف له معاني كثيرة عند الغالبية من الجزائريين الذين يولون الاحترام والتقدير والطاعة لكل شريف منهم وبإمكانه أنْ يخلق كثير من المشاكل لفرنسا[17].

كما نجده يُخصص الحديث في فصل آخر للتعريف بالمذهب الاباضي من حيث أصوله ونشأته وأدواره السياسية والخلافات المذهبية بينه وبين المذاهب الأخرى، ولا نعرف أيضا نواياه في هذا! هل هي خدمة للعلم أم خدمة لأغراض أخرى ؟[18]

كما ذكر في دراسته أن أهم طريقة صوفية في الجزائر هي طريقة أبي الحسن الشاذلي المعروفة بالطريقة الشاذلية بسبب انتشارها الواسع وتفرعها إلى عدد كبير من الطرق الدينية[19]، ومنها تلك التي ارتبط مجالها الجغرافي ببيئة الصحراء وهو الذي نرغب في الكشف عنه وفق ما قدمه لنا لويس رين.

2.2 الزوايا والطرق الصوفية بالصحراء الجزائرية عند لويس رين:

اجتهد لويس رين في أنْ يطمس كثير من الحقائق التاريخية في دراسته "مرابطون وإخوان" بإعطاء كثير من التفسيرات في غير وجهها الحقيقي أو إخفائها، منها ما ذكره من مغالطات عن الطرق الصوفية بالصحراء الجزائرية، بقوله أنها لم تَعد تُشكل أي خطر على فرنسا ولم تصبح خصما لها كما كانت بسبب انطوائها على نفسها وعدم ممارستها لأي نشاط سياسي

16 Rinn, op.cit, p. 21.
17 Ibid, pp. 127 -137.
18 Ibid, pp. 138 – 156.
19 Ibid, pp. 211 – 282.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وهذا نتيجة الإجراءات العقابية التي اتخذتها الإدارة الاستعمارية ضدها والتي سماها بالإصلاحات ويعطينا في هذا مثالا عن الطريقة الدردورية أو الأحباب التي ذكر أنّ شيخها امتنع في مواصلة معاداته لفرنسا مباشرة بعد نفاذ عقوبته وعودته من منفاه بجزيرة كورسيكا، ولم يعد كما كان يحرض الأهالي على عدم دفع الضرائب للسلطات الاستعمارية، إلا أنّ الحقيقة التاريخية التي أخفاها وهو أنّ الشيخ الهاشمي بن علي دردور شيخ الطريقة الدردورية بعد نفاذ عقوبته ظل مناوئا في خطابه للسلطة الاستعمارية في عدم دفع الضرائب وعدم القيام بالسخرة وعدم الاعتراف بأي سلطة عدا سلطته[20].

كما نجده في دراسته أيضا يغالط في تفسيره لدوافع ثورات وانتفاضات شيوخ التصوف ضد فرنسا وذالك من خلال تأكيده على طابعها الشخصي؛ كثورتي العامري سنة 1876 والأوراس سنة 1879 أو انتفاضة الجنوب الوهراني سنة 1880. فنجده ينكر أو يتجاهل الدوافع الحقيقية التي كانت وراء اندلاعها والمتمثلة في الأسباب الدينية والوطنية، ويرى في الأسباب الاقتصادية والاجتماعية المتمثلة في أخطاء القادة الموالين للسلطة الفرنسية وتصرفات العائلات الإقطاعية الكبيرة المتذمرة ومصادرة الأراضي والحبوس ومنع الزيارات عوامل لها[21].

لا نجد أي تفسير لتصورات لويس رين هذه، ولا نفهم أيضا نواياه الحقيقية سوى أنه اجتهد ولم يذخر أي جهد في أن يبعد الأفكار الدينية والوطنية للمقاومة الجزائرية وقادتها ضد الاستعمار الفرنسي حتى يفرغها من محتواها وأهدافها السامية والمتمثلة بصفة خاصة في الجهاد الإسلامي.

كما نجده يواصل في ذكره لمغالطاته بأنّ الطريقة القادرية في الصحراء الشرقية الجزائرية هي من أكبر الحلفاء لفرنسا ومُقَدميها هم من أهم مساعدي الإدارة الفرنسية، ويذكر لنا أن شيخ القادرية سي محمد بلعباس اجتهد في إخضاع قبائل الأوراس ليكونوا سندا لفرنسا خلال ثورتهم سنة 1879[22]. إلا أنه وبالرغم من تأكيده لوفاء الطريقة القادرية لفرنسا وتسليمها لها منذ بداية الاحتلال نجده يتناقض مع أقواله هذه، بذكره أنّ الإدارة الاستعمارية لم تكن أبدا تثق في القادريين وكانت تراقبهم عن كتب وفي هذا يقول: "...أنّ فرنسا لا يمكن أن تتخذ القادريين

20 Ibid, pp. 47 – 48.
21 Ibid, pp. 113 – 114, 450.
22 Ibid, p. 200.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ليدافعوا عنها؛ ولكن يكفيها أن يتعاونوا معها لتمرير روح الحضارة التي يريد الفرنسيون بثها في الجزائر..."[23].

كما تطرقت الدراسة أيضا إلى زوايا وطرق صوفية أخرى منتشرة بصحراء الجزائر (كالزيانية[24] والكرزازية[25] والتجانية[26] والدرقاوية[27] والشيخية[28]) بتخصيصه لكل طريقة فصلا من خلال التعريف بها وبمؤسسها، إذ أفادنا بسيرة وجيزة عن حياته وعن حياة أسلافه، كما تحدث عن نشأة هذه الطرق وسندها وأورادها وأذكارها وأتباعها ومريديها بنوع من التفصيل كما سبق وأن ذكرنا وذالك من خلال ما قدمه من إحصائيات عن أعدادهم وقبائلهم وأنواع وكميات الزيارات والهبات التي كانوا يتحصلون عليها من مختلف الأعراش والقبائل والمتمثلة في الغالب من الحيوانات والخضر والفواكه والحبوب ومواد أخرى كالصوف والسمن والدراهم وغيرها.

ركز لويس رين كثيرا على أنّ هذه العطايا في مظهرها إرادية واختيارية بصفة مطلقة، لكن في باطنها إجبارية فالولي الصالح هو الذي يعرف كيفية طَلبها وتقديمها[29]؛ وكثيرا ما اعتبرها بأنها كانت سببا في الانقسامات والانشقاقات داخل هذه المؤسسات الدينية نفسها من جهة وبين شيوخها ومقدميها من جهة ثانية بهدف الوصول إلى تحقيق أمجاد سياسية ودنيوية دون أن يركز على جواهرها في أنها طرق صوفية تربوية وروحية وسلوكية بقيمها السامية التي أُنشأت لأجلها، ومع طرحه هذا فإنه لم يخفِ ما كان لهذه الزوايا من أهمية كبيرة وهيبة عظيمة في كامل الصحراء الجزائرية. هذه الأهمية ربطها دوما بالنسب الشريف لشيوخها[30].

وفي خضم حديثه عن الزاوية والطريقة الزيانية يذكر أنّ حياة شيوخها كانت دوما غنية وثرية، نتيجة الزيارات التي كانوا يتحصلون عليها من الأتباع والمريدين، وكثيرا ما كانوا يفرضون عقوبات عن الممتنعين منهم.

23 أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900**، ج 1، ط.1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2000، ص 345.

24 خصص لها رين الفصل 28 للحديث عنها من الصفحة 408 إلى الصفحة 415.

25 خصص لها الفصل 23 للحديث عنها من الصفحة 342 إلى الصفحة 348.

26 خصص لها الفصل 29 للحديث عنها من الصفحة 416 إلى الصفحة 451.

27 خصص الحديث عنها؛ الصفحات من 230 إلى الصفحة 263.

28 خصص لها الفصل 24 للحديث عنها من الصفحة 349 إلى الصفحة 368.

29 Ibid, p. 15, 360, 362 – 368.

30 Rinn, op.Cit, pp. 349 – 350.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ويذكر أنّههم ربطتهم علاقات حسنة مع الحكام الفرنسيين وظلوا محافظين على المودة معهم. هذه المودة يُظهرها من خلال عدم مشاركتهم في انتفاضة 1881 بالجنوب الوهراني والتزاماتهم في دفع الضرائب لفرنسا من حين إلى آخر[31]، وهو القول نفسه الذي سار عليه في حديثه عن زاوية كرزاز التي ربطتها أيضا علاقات مع فرنسا أقل ما يقال عنها أنها أكثر ودية وبصفة خاصة بعد انتفاضة سنة 1881 ووفاة شيخها سيدي الكبير، إذ أصبحت زاوية كرزاز ملجأ للمنشقين من الانتفاضة ومرحب بهم من طرفها، بل ساهم الكرزازيون في دور الوساطة لإعادة بعض منهم ممن لجأوا إلى المغرب الأقصى[32].

اجتهد لويس رين أيضا في أَنْ يُظهر العثمانيين في صورة بشعة وذالك بوصفهم بصفات الجور والظلم والفساد والتخلف وأنهم غزاة ومستعمرين، ونرى في هذا نواياه ظاهرة وهي محاولته تشويه العلاقات الطيبة والحسنة التي ربطتهم مع الجزائريين، ونلمس هذا مثلا في حديثه عن الزاوية التيجانية التي عرفت تزايدا في عدد مريديها؛ وهو الأمر الذي لم يقبله العثمانيون كما حَدَّثَ، كونهم رأوا في هذه الزيادة خطرا على مصالحهم وجعلتهم يتخوفون من حدوث ثورة ضدهم لا سيما بعد الحملة العسكرية التي قادها الباي محمد بن عثمان الكبير بنفسه ضد بلدة الشيخ أحمد التجاني بعين ماضي سنة 1199هـ-1785م[33].

ويعطينا أيضا مبرراته للعلاقات الحسنة التي ربطت فرنسا بالزاوية التجانية، وهو فرارها من جور وتسلط العثمانيين عليها، وهو السبب الذي جعلها تكن الحقد والكره إليهم وأن تبحث عن علاقات بديلة وجدتها في السلطة الجديدة الممثلة في فرنسا التي سَالمتها وسَايرتها بقصد أن تبتعد عن الصراعات والتفرغ لخدمة ونشر الطريقة. وهو ما يفسره أيضا بموقف شيوخها من الاحتلال الفرنسي بقولهم: "أنه بلاء من الله قهر به الحكام المستبدين وأنه لا مغير لإرادة الله، بل علينا الاقتناع بها إلى أن يقضي الله أمره"[34].

هذا الموقف للزاوية التيجانية استثمرت فيه كثيرا فرنسا، خصوصا وأنّ شيوخها سايروها في توسعاتها في الصحراء[35]، بل أكثر من هذا نجد أن الإدارة الاستعمارية مارست ضغوطات على

31 Ibid, pp. 113 – 114.
32 Ibid, pp. 34 .8
33 Ibid, pp. 418, 421.
34 Ibid, pp. 349 – 350.
35 Ibid, p. .434

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بعض منهم بمطالبتهم بإصدار تعليمات إلى المقدمين، وخاصة الموجودين بغرب البلاد بالتزام الهدوء والخضوع إلى سلطة الاحتلال[36].

هذا الموقف وجدت فيه أيضا بعثات فرنسا الاستكشافية طريقا للتوغل نحو الصحراء؛ مثل ما حدث مع هنري ديفيري الشاب الفرنسي الذي وجد في زاويتي تماسين والوادي كل المساعدات في قيامه برحلته سنة 1860 بين تقرت والوادي وورقلة والجريد التونسي. هذه الرحلة مكنته من التطلع إلى القيام بأخرى نحو أقصى الجنوب ببلاد الطوارق[37].

دَرَسَ لويس رين أيضا الدرقاوية[38] والشيخية ويذكر أنّ هاتين الطريقتين اتسمتا بالعنف من خلال استخدامهما للقوة قصد تحقيق أهدافهما وأغراضهما، هذه الأهداف يراها بأنها لا تمت بأي صلة للتصوف، بقدر ما هي تخدم أمور دنيوية وسياسية[39].ويُدعم طرحه هذا بجملة من المبررات والحجج والدلائل، مبينا أيضا النتائج منه. فهو يرى مثلا في الدرقاوية أنها طريقة غامضة المنهج وغرضه في هذا أنه يريد إخراجها من مجالها الصوفي والتربوي[40]؛ ويرى في الشيخية أنها لم تَعُد كما كانت في الماضي عند الأحفاد المتقدمين بل انحرفت في أهدافها وغاياتها عند الأحفاد المتأخرين المتصارعين فما بينهم، ويخصص الحديث في هذا مثلا عن الصراع الدامي الذي وقع بين أحفاد الحاج بحوص[41] وأحفاد الحاج عبد الحكم[42] بسبب عائدات زاوية سيدي الشيخ من

36 Ibid, p. .433

37 Ibid, p. 429, 435.

38 قاوم الدرقاويون الفرنسيين في الجزائر بزعامة الشيخ الحاج موسى بن المداني بوحمارة في نواحي الأغواط.

- Ibid, pp. 425, 240 – 247.

39 Ibid, p. 427.

40 Ibid, pp. 240 – 247.

41 هو ثالث أبناء سيدي الشيخ؛ تولى مشيخة الطريقة بوصية من والده بعد وفاته.أخذ عن العلامة الرباني أبي محمد بقورارة، عرف بتدينه وورعه، وكان مصلحا وناصحا بين الناس.قال عنه أبو سالم العياشي :"... له هدى وصيت حسن وتنسك مثابراً على فعل الخيرات من جهاد وحج، فقد أفنى غالب عمره في التردد على الحرمين الشريفين، وربما رجع من طريق قبل أن يصل، ولم يزل كذلك إلى أن توفي في سنة إحدى وتسعين وألف ودفن عند والده بمقبرتهم المعروفة بالأبيض قرب بوسمغون...وتوثر عنه كرامات وله أتباع ".عبد الله طواهرية، **تذكرة الخلان في مناقب العلامة الشيخ سيدي سليمان بن أبي سماحة البكري الصديقي المتوفى سنة 946هـ-1540م – دفين بني ونيف**- المطبعة العربية، غرداية، 2002، ص ص 45، 58.عبد الله بن محمد العياشي، **الرحلة العياشية 1661-1663م**، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، المجلد 1، الطبعة 1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص ص 111-112.

42 هو رابع أبناء سيدي الشيخ؛ تولى الزاوية ومشيخة الطريقة بعهدة من أخيه السيد الحاج أبي حفص.من الأولياء الصالحين، ضريحه مشهور ومزار بالأبيض.أبو حفص الحاج ابن عبد الحاكم بن عبد القادر ابن محمد بن سليمان بن أبي سماحة، **مفاتح**

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تبرعات وهبات وهدايا الأتباع والزوار لها، والتي حرم منها هؤلاء الأخيرون. هذا الحرمان كان جوهر الخلاف والصراع بينهما كانت نتيجته انقسام هذه القبيلة الكبيرة إلى جناحين متعاديين إلى الأبد كما ذَكر وهما جناح الشراقة[43] وجناح الغرابة[44].

حاول لويس رين أن يستثمر في كتابته عن هذه الصراعات والانشقاقات داخل الزاوية الشيخية من خلال تغذيتها بقوله أنّ صراع شيوخها لم يكن أبدا صراعا عقائديا بقدر ما كان صراعا سياسيا لأجل الوصول إلى الحكم والسيادة من جهة؛ ومن جهة ثانية هو صراع دنيوي لأجل البحث عن الغنى والثراء.

هذا الاستثمار ذهب به إلى أبعد من هذا وذالك من خلال وصفه لشيوخ ومقاديم الطريقة والزاوية الشيخية بأنهم قطاع طرق، كونهم بمجرد أن تمتنع القبائل التي كانت موالية لأسلافهم عن دفع الهبات والرسوم الدينية إلى الزاوية حتى يقومون بغزوها وسلبها.

يرى لويس رين في هذه التصرفات بأنها كانت سببا كافيا في نفور الكثير من العائلات الشيخية والمريدين والأتباع من هذه الطريقة، وسببا في هجرتهم من الصحراء إلى تلال وهران للعيش والاستقرار بعيدين عن معقل الشيخية تعبيرا منهم عن عدم رضاهم بهذه السلوكات والتصرفات.

نجده متناقضا في حديثه هذا في صفحات أخرى من دراسته؛ بذكره بأنّ هؤلاء المهاجرين هم أيضا ساروا على نهج شيوخهم باجتهادهم في جمع الزيارات والهدايا لأنفسهم مستغلين في ذلك انتسابهم إلى الطريقة الشيخية، والتي كانوا يتحصلون عليها مقابل منحهم للبركة والدعاء المستجاب لمانحيها.

يرى لويس رين في هذه الهدايا والزيارات أنّها كانت السبب في صراع هذه العائلات المهاجرة فما بينها، والتي جعلت من كل واحدة منها تسعى إلى خدمة مصالحها فقط. بل هذه

الخيرات ومواهب البركات في الصلاة على سيد السادات، تحقيق وتقديم عبد الله طواهرية، منشورات دار الأديب، السانيا، وهران، 2007، ص 10.

43 نالوا هذا الاسم بسبب إقامتهم بالقصر الشرقي وهم يمثلون أحفاد وأبناء الحاج بوحفص.

44 نالوا هذا الاسم نسبة إلى إقامتهم بالقصر الغربي وهم يمثلون أحفاد وأبناء الحاج عبد الحكم، تمكنوا من الظفر بتحقيق مطالبهم بحصولهم على نصف عائدات الزاوية، وقد كان هذا بعد سلسلة من المعارك العنيفة التي أجبرت أولاد الحاج بوحفص على التنازل والرضوخ لهم وإقامة الصلح الذي لم يستمر طويلا ليتجدد الصراع مرة ثانية لأنهم ندموا على تنازلاتهم المجبرة والتي سهلت لخصومهم تأسيس زاوية لهم بقصرهم الغربي وهو ما لم يكونوا يتوقعوه أو يرغبوا فيه. Rinn, op.cit, p. 356

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

السلوكات أيضا يراها أنها فتحت المجال لأناس أجانب عن التنظيم الشيخي حَذّو حذوهم لتحقيق هذه المصالح من خلال اتخاذهم للسبحة وتنصيب أنفسهم بأنهم خدام للشيخية[45].

لم يدخر لويس رين أي جهد في دراسته للطريقة الشيخية في العمل على تشويها والحط من مكانة مقدميها ومريديها؛ فحتى القبائل البدوية التي اعتمدت في حياتها على الترحال بحثا عن المراعي يراها بأنها انتسبت إليها لأنها رأت فيها الوسيلة التي تضمن لنفسها من خلالها ضرورة العيش ونمو العائلة، وذلك بضمان حياة قطعانهم والحرية في مبادلاتهم التجارية، وبعملهم هذا يلصق بهم الجهل والسفاهة وينعتهم بالتعساء لأنهم لم يرغبوا في التحرر من أفكارهم هذه[46].

كما أشار أيضا في دراسته هذه إلى انضمام الكثير من الشيخيين إلى طرق دينية أخرى كالسهلية؛ الدرقاوية، القادرية والطيبية، ويعطي في هذا مثالا عن انتماء رئيس وكبير أولاد سيدي الشيخ الغرابة سليمان بن قدور إلى الطريقة الطيبية وهو في نظره تدخل شبه رسمي في شؤون هؤلاء الشيخيين.

هذه بَعضٌ من استخلاصات لويس رين في دراسته عن الزوايا والطرق الصوفية بالصحراء الجزائرية، وقد حاولنا أن نَكشف عن حقيقة بعض منها والتي تَظهر لنا أنها لم تكن في طبيعتها خالصة للعلم والمعرفة والبحث، وإن كان العكس فإنه لم يكن مقصودا من صاحبها بقدر ما كانت كتابته تخدم السياسة الاستعمارية الفرنسية التي هدفت إلى تشويه تاريخ الجزائر والحط من تقاليد وأعراف وثقافة أهلها.بالبحث عن مبرراتِ قُدومها للجزائر خاصة والمسلمين عامة لأجل مهمة حضارية لا غير كما زعمت.فعلينا أن نُدرك جيدا حقيقة هذه الكتابات الفرنسية ومراميها.

ونرى أنّ دراسته هي اجتهاد منه لإفراغ مؤسسات الزوايا والطرق الصوفية من كل معانيها السامية والتي أنشئت لأجلها من تعليم ديني وتربية روحية وتكافل اجتماعي، وذالك من خلال اتهاماته المتكررة لشيوخها ومقاديمها بالطمع والانتهازية بجمعهم للثروة والمال على حساب الأتباع والمريدين والزوار؛ فلم يكن يهمهم أبدا من الطريقة التصوف والتربية كما ذكر.

لا نجد أيضا أي تفسير لتركيز حديثه في الدراسة عن الصراعات التي ذكرها أنها حدثت بين كثير من الطرق الصوفية، كصراع الشيخين فما بينهم أو العلاقات السيئة التي جمعت

45 Ibid, pp. 358—360.
46 Ibid, p. 361.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

التيجانية بالقادرية[47]؛ أو التنافس بين الطريقة الطيبية والتيجانية حول مناطق النفوذ[48]، أو وصفه لطريقة ما بأنّها حليفة ومتعاونة مع فرنسا وجب حمايتها وتشجيعها وأخرى بأنّها عدوة وغير متعاونة وجب إضعافها ومحاربتها وغيره من الحديث في هذا المجال.

لنا الحق في أن نطرح أسئلتنا المشروعة فهل كانت نوايا هذا الضابط العسكري السامي من خلال إظهاره في كتابته للاهتمامات الدنيوية لشيوخ ومقاديم الزوايا والطرق الصوفية أو حديثه عن الصراعات فما بينهم؛ مثل ما كان يزعم به أو يدعيه سابقوه من الكتاب العسكريين الفرنسيين وغيرهم إدخال الحضارة الأوروبية الحديثة إلى الجزائر لتستفيد منها! وأنّ فرنسا هي نعمة على الشعوب المتخلفة وبصفة خاصة الإسلامية منها!

نرى أنّ تصورات لويس رين في دراستهّ هذه مغلوطة ومقصودة؛ فهو الخبير في شؤون الأهالي والعائلات الكبيرة والمرابطين والأشراف والطرق الصوفية، والقصد منها أنه كان يدرك جيدا بالدور الذي يجب أن تلعبه الزوايا الروحية في الجهاد وبأن الوازع الديني للجزائريين في ظل الانتساب لهذه الطرق الصوفية كفيل بالقضاء على فرنسا وعلى مصالحها بالجزائر. هذا الاستنتاج لنا ما يبرره من خلال سياسة المناورة التي انتهجتها فرنسا والتي حاولت من خلالها أن تتقرب من العائلات الكبيرة، وأن تجعلها واسطة بينها وبين السكان المحليين فأسندت لزعمائها وظائف إدارية مصحوبة بالألقاب والجاه، كان غرضها تفكيك وحدة القبيلة بإدخال عامل المنافسة بين العائلات الكبيرة وبين أفراد العائلة نفسها، وهو ما نجده مثلا مع سي حمزة ولد بوبكر البوشيخي بتعيينه خليفة لهم على كل الجنوب الوهراني.

هذه الزوايا والطرق الصوفية التي تحدث عنها لويس رين هي التي أنجبت المقاومات الشعبية وحضّت على الجهاد ضد هؤلاء الغزاة الذين قدموا لنشر المسيحية وضرب الإسلام، وهي نفسها التي نجحت في توحيد القبائل والأعراش تحت سلطة متصوفيها.

لقد كانت تشكل الزوايا وطرقها المختلفة في التصوف بهذه البلاد حصنا منيعا ضد كل محاولة للاستعمار الذي عملت إدارته كل ما في وسعها لإخضاعها بكل الوسائل، رغم المقاومة الشديدة التي اعترضتها وكان هذا بمثابة التحدي بالنسبة إليهم، هذه الزوايا كانت سببا أيضا في تأخير رغبات فرنسا في التوسع نحو الجنوب بالصحراء الجزائرية سنوات من الزمن. فكيف لا تكون هذه الدراسة مُغرضة ؟

47 Ibid, p. .435
48 Ibid, p. .382

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أراد لويس رين من خلال هذه الدراسة أنْ يغالط حتى يتمكن من تقديم خدمات وإعانات كُلف بها لبلاده ولسلطتِها الاستعمارية التي عملت لأجل تطبيق سياسة فرق تسد بضرب الصف الواحد وتفكيك المجتمع من الداخل، فاستعملت العنف والقوة مع البعض تارة واستمالت البعض الآخر تارة أخرى بالتركيز على هذه الزوايا والطرق الصوفية، مُعتمدةً في ذلك على الدور الكبير الذي تقوم به المكاتب العربية في خلق البلبلة وإثارة أحقاد القبائل فما بينها حتى يستتب لها الأمر، والتغلغل بين العائلات الكبيرة التي عملت على استمالتها إليها لتجزئتها وتقزيمها؛ فالخلافة الواحدة جزئت إلى عدة قيادات وأغوات حتى لا يستقل صاحبها بالسلطة الواحدة[49].

وفي نهاية مقالنا هذا والذي اتخذنا منه دراسة لويس رين "مرابطون وإخوان — دراسة عن الإسلام في الجزائر -" أنموذجا، أردنا أن نشير إلى الأفكار والتصورات المغلوطة التي أسست منها كتابات كثير من الفرنسيين خلال هذه الفترة، والتي نراها أنها لم تكن أبدا بريئة وصافية النوايا والمقاصد، بل جعلت منها وسيلة لزرع التفرقة والفتن حتى تكرس هيمنة الاستعمار على الجزائر وتحقق مشاريعه وأهدافه وفي مقابل هذا ليس عيبا أن نأخذ منها، لكن وجب أن نحتاط بالحذر والتحقيق حتى لا نَدْرس الغلط والتحريف في ماضينا وتاريخنا ونورثه لأبنائنا وأجيالنا القادمة.

قائمة المصادر والمراجع:

أ) المراجع العربية:

- أبو حفص الحاج ابن عبد الحاكم بن عبد القادر ابن محمد بن سليمان بن أبي سماحة، **مفاتح الخيرات ومواهب البركات في الصلاة على سيد السادات**، تحقيق وتقديم عبد الله طواهرية، منشورات دار الأديب، السانيا، وهران، 2007.

- العياشي عبد الله بن محمد، **الرحلة العياشية 1661-1663م**، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، المجلد 1، الطبعة 1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006.

- بوعزيز يحي، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية 1830 — 1954**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1985.

- سعد الله أبي القاسم، **الحركة الوطنية الجزائرية 1860 — 1900**، لبنان: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2000.

49 Xavier yacono, histoire de l'Algérie de la fin de la régence turc à l'insurrection de 1954. Edition de l'athanthrophe, France 1993, p. 161.

ISSN : **2602-618X**
EISSN: **2710-8031**

- طواهرية عبد الله، **تذكرة الخلان في مناقب العلامة الشيخ سيدي سليمان بن أبي سماحة البكري الصديقي المتوفى سنة 946هـ-1540م – دفين بني ونيف**-المطبعة العربية، غرداية، 2002.

ب) المراجع الأجنبية :

- Daumas, **Sahara algérien**, fortin – Masson, paris, 1887.
-Dennice, **précis historique et administratif de la compagne d'Afrique**, lepannay, paris, 1830.
-faucon Narcisse, **le livre d'or de l'Algérie**, (histoire politique, militaire, administrative événement et faits principaux, biographie des hommes ayant marque dans l'armée, les sciences, les lettres, ect.de 1830 a 1889), tome 1, challamel et Cie éditeurs, 5, paris 1889.
- Ferdinard Hugounet, **souvenir d'un chef de berrau arabe**, Michal Lévy-Fréver, paris, 1858.
- Louis RINN، **Marabouts et Khouans étude sur l'islam en Algérie**. Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Paris,1884.
-Trumelet, **les français dans le désert**, 4° édition, challanet, paris, 1887.
- Octave DEPONT et Xavier COPPOLANI, **les confréries religieuses musulmanes**, Typographie et lithographie Adolphe Jourdan, Alger,1897.
-yacono Xavier, **histoire de l'Algérie de la fin de la régence turc à l'insurrection de 1954**. Edition de l'athanthrophe, France 1993.